

التجريب في الروايات المنشورة الفائزة بجائزة كتارا

الجسد اختيارا

الباحثة : امينه ثعبان يوسف

أ.د. فرحان بدري كاظم الحربي

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص :

يقدم البحث الموسوم (التجريب في الروايات المنشورة الفائزة بجائزة كتارا الجسد اختيارا) دراسة عن التجريب في موضوع الجسد في روايات عربية نالت جائزة كتارا المخصصة للروايات المنشورة من أجل بيان ما انمازت به هذه الروايات في توظيف الجسد، وكيف غايرت السائد في الروايات التي تناولت موضوع الجسد، إذ شكّل مادة مهمة للرد الثقافي للاستعمار الذي يستلّب الجسد ومحاولا محو وجود الآخر المستضعف، فقد شكّل الجسد مساحة وجود نصي في الروايات؛ ليعبر عن الخطابات المتعارضة وكيفية مقاومة المهمش لإثبات وجوده .

الكلمات المفتاحية : التجريب ، الجسد، الاستلاب والمقاومة

مدخل نظري :

الرواية من الفنون الإبداعية ، التي شهدت تحولات كبيرة على مستوى الشكل والمضمون ، فجاءت نتيجة لمواكبتها متغيرات العصور، وللطموح الإبداعي لدى المبدعين ليتركوا بصمتهم في هذا الفن المتجدد ، فكانت محاولاتهم الدائمة للتجريب لكسر الثوابت والخروج عليها . فالتجريب في اللغة يقال : " جَرَّبَ الرجل تجربة : اختبره ، [...] ومُجَرَّبٌ قد عرف الأمور وجَرَّبَها " (1) .

وكلمة التجريب في الترجمة الفرنسية هي (experiment - Experience) وكلتاها مشتقتان من الأصل اللاتيني (experir) ، الذي يعني (أن يختبر) وهي بهذا المعنى تتناسب مع ما يقصد

بها في النص الإبداعي ، الذي يتطلب تجارب جديدة للأشياء ومحاولات دائمة للبحث عن طرائق جديدة ومختلفة (2).

والتجريب " نهج راديكالي لمهمة إزالة الألفة المستمرة " (3) وقد ارتبط التجريب بالبحث لأن " البحث يحفز الكاتب الروائي إلى تجاوز الأشكال المستهلكة والعقيمة وإلى تجريب أدوات جديدة وخلق أشكال حيّة " (4) فالتجريب " البحث عن أشكال جديدة تكسر المنوالية وتتمرد على القوالب الكلاسيكية الموروثة ... أي أن كل مبدع يخوض مغامرة البحث عن شكل ومضمون غير مسبوقين يكونان قادرين على تمثيل الجوانب المميزة في تجربته الروائية أو الشعرية " (5) .

وقيل هو : " قرين الإبداع ، لأنه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة ، فهو جوهر الإبداع وحقيقته عندما يتجاوز المؤلف ويغامر في قلب المستقبل مما يتطلب الشجاعة والمغامرة واستهداف المجهول دون التحقق من النجاح " (6) .

فالتجريب في تغير مستمر لا يستقر على معايير محددة ولا على قوانين ثابتة لأنه ضد القانون وضد الثوابت ، فهو يحاول أن يكسر القار لابتكار الجديد . ولكن محدداته يمكن أن تكون بكسر ثوابت المرحلة أو العصر الذي تنتمي إليه الرواية علما أن ما مألوف في بيئة ما قد يكون غير مألوف في بيئة أخرى ؛ لأن هذا يرتبط بنواحي ثقافية وظروف مختلفة من بيئة إلى أخرى لذلك نجد التجريب يختلف في البيئات ويمكن أن نحدده في بيئتنا العربية بأن يكسر المبدع ما ساد في النتاج الروائي من قوانين ، والتي أصبحت شائعة في هذا الفن ، وهذا يتعلق بالجوانب الشكلية والمضمونية فكسر المحظورات وطرح قضايا مسكوت عنها ومعالجتها وتقديم حلول لهذه القضايا تكون غير واردة في السرد الروائي وابتكار طرائق أو أساليب جديدة بوعي وقصدية من المبدع .

وعلى ما تقدم ذكره أنفا ، فإن التجريب الروائي يحدد ب " ابتكار عوالم متخيلة جديدة ... ،
توظيف تقنيات فنية محدثة ، ... ، اكتشاف مستويات لغوية في التعبير تتجاوز نطاق المؤلف في
الإبداع السائد " (7) .

أما الجسد فقد تناولته الروايات العالمية والروايات العربية وقد اهتمت اهتماما كبيرا به ؛ لأن الجسد نسق تواصل يعبّر عن الحالات العاطفية والوجدانية والعقلية المختلفة

، ويرتبط هذا النسق بنظام ينتمي إليه كالأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها لينتج عبر حركاته وإيماءاته والإشارات التي تصدر عنه دلالات مختلفة، منها ما يتعلق بالأداء الوظيفي العادي ، إذ يدخل في إطار إنجاز أعمال نفعية مباشرة كالشرب والأكل وما إلى ذلك ، ومنها ما يتعلق بإشارات تعبر عن دلالات ثقافية فيحضر الجسد ثقافيا ؛ليعبر عن معنى يراد توصيله ، فينتقل من موضوع من موضوعات العالم إلى موضوع يخبر عن العالم أي ينتقل من الفعل الغريزي أو اللحظي إلى الفعل المدرك وبهذا نتجاوز حدود الشيء ليصبح معبرا عما يشكل العالم الإنساني ، وعليه فالجسد لغة لها قوانينها ومنطقها وأسرارها وهو الهوية التي تعبر عن وجود الإنسان(8) .

شكّل الجسد مادة مهمة يتم توظيفها في مجالات عدة منها : ثقافية ، وسياسية ، واجتماعية ، ودينية ، وفلسفية ، واثروبولوجية ؛ للتعبير عن قضايا يراد إيضاحها أو كشف المغيب والمستور.

حظي الجسد باهتمام كبير مع بداية الحداثة الغربية ؛ إذ يظهر بوضوح في الدراسات الخاصة بالجسد في الفكر الغربي الحديث والمعاصر فقد توجهت الدراسات إلى الاهتمام بجسد الرجل والمرأة وسعت إلى تحرير الجسد من كل أشكال القيود ، وبعد مجيء ما بعد الحداثة أظهرت اهتماما جديدا بالجسد ؛ فغيّرت علاقة الإنسان بجسده وأصبح الجسد كسلعة ليتواءم مع المجتمع الاستهلاكي الذي ساد (9).

وكان لموضوع الجسد حضور سواء في " المنجز الروائي الغربي أم في غيره من المجالات أدبية كانت أم غير أدبية كالفلسفة والإعلام " إذ " يمثل الجسد قيمة ثقافية وبؤرة مركزية داخل النصوص السرديّة ، فقد نظر الكتاب / الكاتبات إلى الجسد كمنبع فياض ومتجدد ثقافيا وفنيا " (10)

و الفن الروائي قد أولى اهتماما كبيرا بالجسد، وخاصة في الرواية ما بعد الحداثة إذ أخذ أشكالا متنوعة منها : الشبقي (الإيروسّي) ، والصوفي النوراني ، والعجائبي ومحو الجسد (11) .

و" انفتحت الرؤية إلى الجسد على أقصى مدى للاتساع ، فأصبح الجسد باعثا للجنس ، ومنطلقا للوعي ، ومعبرا لقدرات الإنسان الطبيعية والميتافيزيقية سواء على مستوى المهارات الجسدية الرياضية والموسيقية والحركية عموما ، أو على مستوى التواصل الروحي عبر الممارسات الارتقائية ، ومنها اليوغا والصوفية ... إلخ ، كما أن الجسد يصبح مساحة للتعبير عن علاقة الإنسان بالمجتمع المحيط " (12).

الجسد والسلطة :

الجسد كان وما يزال محورا تمارس السلطة عليه هيمنتها وبكل أشكالها فما يهم " السلطة أية سلطة أن تستحوذ عليه في النهاية ، وأن تخضعه وتستعمله وتستغله هو الجسد ، الجسد الإنساني الجسد القابل لإعادة إنتاج ذاته / طاقته في العمل والخدمة ، في القتال ، في الحراسة في حقول الفنون والعلوم وكذلك في أن يكون موضوع فرجة واستعراض أو عقوبة أو متعة " (13).

وإن العلاقة بين السلطة والجسد تشتغل بطريقتين (14):

- 1- طريقة السلطة على الأجساد وهذا يكون بما تمارسه السلطة من نفوذ مباشر في استثمار الأجساد في ترويضها ، أو تعذيبها ، أو تجبرها على تنفيذ الواجبات .
- 2- سلطة الجسد وتتمثل بقوة الإرادة والرغبة لديه ، وإذا تعارضت سلطة الجسد مع السلطة المفروضة على الأجساد فستكون مصدرا للثورة .

ونجد في الروايات العربية تجسيدا لهاتين الطريقتين فيصبح الجسد دالا إذ " يتمظهر كرموز إيحائية محيلة إلى مدلولات ثيمة جسدية ، باعتبارها حديثا عن الجسد الدال الذي هو حديث عن الجسد كأعضاء . هذه الأعضاء ترتبط إما بالجسد ككل حاضر ، أو كمتعة حاضرة ، أو كفكر جسدي حاضر . إن الجسد الدال والموزع عبر صفحات الرواية إذا ما تم تجميع مكوناته يصير جسدا مدلولا " (15) .

و الجسد يعد " ساحة ثقافية ، واجتماعية وسياسية وأخلاقية ودينية وعرقية وغيرها من المدلولات التي يحتويها بدلالاته المختلفة ، وإشاراته المتنوعة ، في رسم

مساحات الرد على كل ما هو معلن تارة وما هو مكبوت تارة أخرى الرد على ما هو حاضر في أبعاده المختلفة ، منها البعد الكولونيالي ذي الدوائر المتعددة في السيطرة والقمع والاستباحة ضد الآخر " (16) ، وكذلك نجد السياسات الدكتاتورية التي اتسمت بها أنظمة البلدان العربية وتلجأ إلى قمع الحريات ومصادرة حرية الرأي وهيمنة السلطة وفرض سياساتها وإيديولوجياتها وقمع كل من يخالفها بالسجن أو القتل والتعذيب أي سلب حضوره وتغييبه عن وجوده (17) ، و يؤدي ذلك إلى إحداث شرخ كبير في علاقة الذات مع العالم وحضورها ووعيها ؛ لأن كل ما يصيب الجسد من عاهات نتيجة التعذيب من قبل السلطة وخاصة إذا بتر " عضو من الجسد أو إيذائه [سبب] نكوصا عن ذلك الحضور ، وعن إدراك الذات لعالمها الخارجي على نحو صادق وحقيقي ، ولا سيما إذا كان البتر أو الإيذاء قسريا ومتعمدا من قوى خارجية تحاول استمالة الفكر وإخضاعه لإيديولوجيتها العنيفة " (18) .

اهتمت الروايات العربية بقضايا بلداننا وما تعانيه من استبداد كانت وما تزال تعاني منه إلى الآن ، فقد مرت هذه البلدان بتعاقب الاستعمار فما إن تحررت من هيمنت الاستعمار العثماني حتى دخلت في استبداد آخر تمثل في الاستعمار الفرنسي ، والبريطاني ، والإيطالي ، والاستيطان الإسرائيلي الصهيوني والهيمنة الأمريكية عليها عبر العصور من استبداد وظلم واحتلال ونجد الاستلاب بكل أنواعه قد مارسه المستعمرون وقد أوجد له بنيات تسانده في إدانة استبداده عن بعد (19)

ومع هذا الاستبداد قد صاحبه مقاومة تظهر بأشكال مختلفة وبصور عدة فتبين أن الاحتلال الصهيوني لفلسطين قد جعل المقاومة قائمة إلى يومنا بكل أشكالها وهذا ما حاضرفي الرواية ؛ إذ حاولت أن تمثل هذه القضية وتعبر عن ثورتها وبيان موقفها ضد الاحتلال فالكتابة " وسيلة من وسائل المقاومة الموازية للمقاومة المسلحة بما أن المقاومة المسلحة تتصدى للغزو المادي ، بينما تتصدى الكتابة الملتزمة للغزو الفكري والثقافي " (20)

فالقضية الفلسطينية قضية وجود وقد عبر الروائيون عنها بأشكال فنية متعددة وهذا ما يحتمه الالتزام الفكري والوطني فصورت الرواية كيف الفلسطيني يقاوم الاحتلال فبينّ بعضهم الصراع الفلسطيني الصهيوني وتوضيح الأحداث التاريخية والانتفاضات الفلسطينية وبيان الأوضاع الصعبة للفلسطينيين وما يعانونه من ظلم واضطهاد (21)

وبناء على ما تقدم ذكره سأنطلق في تحليل روايتين من الروايات العربية اللتين فازتا بجائزة كتارا للرواية العربية؛ إذ وجدنا توظيف الجسد قد أخذ منحى مغايراً عما هو سائد في روايات المقاومة وهاتان الروايتان هما :

(جنة لم تسقط تفاحتها) و(وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال) .

- مقاومة استلاب الجسد ، وجدل التحول :

في رواية (جنة لم تسقط تفاحتها) يظهر أن الروائية قد وظفت الجسد للرد على الحضور الاستعماري الانتهاكي بكل أشكاله العنيفة عن طريق شخصية الفلسطينية المغدور والمنتهاك جسده ليسلبه الآخر المعتدي ويقتلع قلبه ليمنح الحياة لضده الإسرائيلي ، ولكن هذا السلب كان شكلياً ليبدأ الإسرائيلي يعيش في حالة الصراع بعد أن استولى الفلسطيني الذي ينبض قلبه في ضده ليغير مسار الإسرائيلي كفكر ومشاعر إذ يقول داوود : " غيمة الألم التي سدت منافذ الضوء عن حياتي بالأمس رحلت [...] لم أعد أنا داوود الذي كان ولا اليقظة تغفو على ذراع الصحو ، فأدرك من أنا. يوقظني الحرف لأكتب ما أنا فيه ، وما ينطلي على قلبي وما قد ينطلق منه ، منذ الأمس فقط قد امتلكت قلباً جديداً ، قلباً لا يحمل كرهاً أو حقداً لأحد ، له ثوب مختلف ، أكاد أحاور الصدفة في هذا المنطق العجيب ، وكيف للقدر قدرة أن يجمعك بضدك في أن ولا تستطيع وقتها أن يكون هو كاملاً ولا أنت كما كنت " (22).

فيكشف النص المذكور آنفاً عن التحول في الشخصية التي أصبحت خلافاً لما كانت عليه ، فيبرز الجانب العاطفي كأنه صفحة بيضاء أو ولادة جديدة لداوود ولكن الجدل يظهر في الشخصية التي يتصارع ضداً فيها .

يحضر في هذا الجسد المتمثل ب(داوود) وبداخله (جزء من جسد الفلسطيني) فيتصارع الضدان وأي ضدين ، أحدهما المتمثل بالمستعمر (داوود) الحاضر والمهيمن والمستولي الذي يعيش الحاضر وبيده القوة على الآخر المهمش المتمثل بالفلسطيني .

وفي نص آخر يقول : " وضعت يدي على قلبي أحاول أن أشد عليه ليتوقف وجعي الذي أنا عليه الآن ، متى استطاعوا أن يأخذوا قلب هذا الشاب الفلسطيني دون علم أهله ، ودون أن يمهلوني فترة لأستطيع أن أعيش أنا وضدي على مساحة جسد واحدة ، بعد أن رفضتنا الجغرافيا ، وبعد أن أصبحت هذه العداوة مركزا لصراع لم يعد دينيا إقليميا أو عربيا فقط ، بل صراع بقاء . " (23).

يبدأ الآخر المتمثل بالمركز (السلطة) بسؤال ذاته عن أسئلة الآخر المستلب (الفلسطيني) ، و محاولة الروائية بجعل الآخر الإسرائيلي أن يقوم بدور المساءلة لنفسه هي محاولة جديدة ؛ لأن أغلب الروايات، التي تناولت القضية الفلسطينية قد تناولت القضية مع وجود البعد الواضح والقطيعة مع الفلسطيني والإسرائيلي أما في هذه الرواية ، فقرّبت الروائية المسافات وقامت بتفكيك المعتدي عن طريق مساءلته لنفسه وب نفسه ، وهذه من الأساليب الإقناعية والحجاجية غير السائدة في الرواية إذ جعلت المعتدي يدين نفسه بنفسه ، وجعلته يعيش ويلات الآخر .

و ما تقدم ذكره يظهر جليا في الأسئلة التي يثيرها داوود مع نفسه فيقول : " أعرف بأن العقل والقلب لا يلتقيان إلا في حالات نادرة وغير مشابهة ، ولأمر يتفقان عليه بشكل غير مسبوق ، كيف لعقلي الذي اعتاد على الدفاع عن دولة إسرائيل وحدودها الآمنة ، والذي تطوع أعواما في مؤسسات لحشد التضامن اليهودي مع ما يقوم به جيش الدفاع ضد السكان العزل في غزة أن يستمر مستقبلا في ما كان يفعله ؟ وكيف لي أن أواجه هذا الكم الكبير من الحب لفلسطين الذي يحمله قلبي وأشعر به في نبضي ، ويرفضه عقلي بمجمل التراكمات الثقافية والدينية التي حملتها منذ الطفولة ؟ هذه هي المرة الأولى التي أبكي فيها على شيء تعود ملكيته لفلسطيني " (24).

فالصراع الذي تفصح عنه الشخصية وتحولها بالميلول للتعاطف مع الفلسطينيين وقضيتهم وإدانة الإسرائيليين ما هو إلا شكل من أشكال المقاومة التي سعت الروائية لحبكتها في النص ،فهو أسلوب مغاير في مقاومة السلطة التي تحاول الهيمنة حتى على الأجساد واستغلالها لمصالحها في إخضاع الجسد لهيمنتها ،فهذا الأسلوب يكشف عن علاقة السلطة المستعمرة مع الآخر الفلسطيني القائمة على الصراع الدائم .

كشف النص عن التراكم العدائي من جهة المستعمر ،فهو وليد تراكمات دينية وثقافية وسياسية .

وفي نص آخر يبرز الجدل واضحا إذ يقول داوود " قلبي الذي ينبض في كل دقيقة يجبرني على أن أفكر في شكل البشر وملامحهم ، وتصرفاتهم ، وإيمانهم بالحياة والحب والخير والصدق . هذه القيم الإنسانية التي لا يمكن لأي مخلوق أن يخلق بدونها ، والبيئة كفيلة أن تمارس دورها في تقليص نسبة هذه القيم أو زيادتها فيهم ، لن أقول بأنهم ملائكة وأنا قاتلون ولن أفترض الآن العكس ، أنا فقدت صديق الطفولة الأولى لي في مدارس إسرائيل موشيه عال [...] قام انتحاري فلسطيني بتفجير نفسه بحزام ناسف [...] لكنني الآن لست إسرائيلييا تماما ، بل تنقصني المشاعر التي تحركني لأبادر في المشاريع التي اشترك بها سابقا " (25).

لقد أيقظ هذا القلب الوعي في ذات داوود وجعله يساءل نفسه وينظر إلى القضية من عدة زوايا وهذا نتيجة حضور الآخر الفلسطيني المغيب المهمش في الواقع الإسرائيلي في الذات الحاضرة المتمثلة بـداوود ؛للخروج من السلطة الإسرائيلية وتفكيكها ،والبحث عما هو مغاير كوجهة نظر بعيدة عن الصورة النمطية السائدة عند الإسرائيلي في نظرته للفلسطيني .

فما تقدم ذكره ما هو إلا تنحية للسلطة ولحضورها فهي لها يد على اغتصاب الأرض وتزييف الحقائق وفرض هيمنتها ، ولكن بهذه الآلية لحضور الآخر المغيب عن طريق قلبه في سيطرته على جسد داوود وتحول مشاعره وتغييرها من حال إلى حال ما هو إلا مقاومة وتصديا للمستعمر .

أخذ هذا القلب ليسلب راحة الجسد فيقول داوود : " باستثناء القلب الذي يفكر الآن عني ويتجاوز في مساحة تفكيره العقل والحدس الذي كان يرافقني دوما ، ما من أمر أكثر أهمية منه ومن تحديد هوية المتبرع ، وما يصاحب قلبه العاق في داخلي من تقلبات نفسية وعاطفية وروحية " (26).

لم تكتف هذه الشخصية بمساءلة ذاتها وتوجهاتها بل ذهبت للبحث عن الآخر واكتشافه لاكتشاف نفسه من جديد يقول صديقه عيسى الناطور عن داوود : " المدهش أن مشاعره تغيرت ، ظهر هذا واضحا حين سألته (لم الآن تنوي زيارتهم؟!) إجابته كانت غير مقنعة ، [...] إن هذا الشخص هو الذي كنت أحاول في الماضي أن أمهد له الطريق ليتقبل الطرف الآخر ، لم يكن يرى فيهم سوى أجساد بشرية يحترقون كالفحم ، يولدون ويموتون ، هذا الموت من وجهة نظره هو بداية لمجمل أحداث حياتهم الفرحة والتعسة . حين طلب مني في البداية أن يزور رام الله والخليل وقفت مذهولا لست مندهشا من الطلب بقدر ذهولي من تغيره الشديد في ظروف وجيزة ، حتى زيارتي الأخيرة له قبل أن يجري العملية كان على ما أعهده عليه ، متمسكا بعنصريته وقناعاته بأن هذه الأرض لهم ، ولا أحقية لأحد فيها " (27).

فتحول الشخصية من كاره للآخر ورفضه له إلى قبوله والبحث عن تاريخه لاكتشافه ما هو إلا كسر للأنا المتضخمة لدى الإسرائيلي ؛لتجعله الروائية هو المبادر في البحث عن الفلسطيني ، وما هو إلا تمثيل لفلسطين وتاريخها فمن خلال هذا القلب النابض الذي يرتكز في الجسد في الإسرائيلي .

عمل هذا القلب في الجسد الجديد في دعم الصراع بين الحضور (السلطة) ، وبين المغيب (الهامش) لتبرز أهم الثنائيات المتقابلة من حب وكره ورفض وقبول ومقاومة وخضوع " فالإنسان ليس جسده وحسب ، ولكن جسده هو علامة حضوره في العالم ، فهو الذي يدفع ضريبة تشكّل الذات ونموها وارتقائها ، أي ضريبة الوجود والفعل والفكر [...] والجسد هو حامل الهوية ، الهوية التي هي ، في النهاية ؛ نتاج تاريخ الجسد في العالم . يمكن أن نقرأ تاريخنا السياسي والاجتماعي من منظور

الصراعات التي تتمحور حول فكرة التحكم بالأجساد، والتوسل بها، بطاقتها الحيوية، وتوظيفها لغايات معينة، هي غايات فئات ومؤسسات وقوى، متآزرة أو متنافرة، باحثة عن السلطة والثروة والنفوذ" (28).

وفي نص آخر يقول داوود: " كان من بين الذين سلبوا قلبي طفل وجدناه بعد طول مسير من الشمال إلى الجنوب، لا يتعدى السبع سنوات، يقطع مسافة كبيرة للعودة إلى منزله [...] طلبت من عيسى أن يلحق به إلى بيته أردت أن أكتشف الذي خلف هذه الحصون البسيطة، مع أنني منذ أن أصبح قلبي فلسطينيا، ماعدت أخاف من شيء، لا مما أربكني قديما، ولا مما قد يحدث دون تخطيط، أل هذا السبب دولة بعتاد كامل لا ترهب قلب طفل صغير لا يحمل أي سلاح؟! " (29).

لم تستطع الشخصية أن تفكر بوعي جديد وتثير أسئلة وتفكيك إسرائيل إلا بحلول قلب جديد، فتعترف الشخصية بأن هذا القلب فلسطيني، مما يبين ضعف الأساس الذي تقوم عليه إسرائيل والقوة والثبات، اللتان يتمتع بهما الفلسطينيون.

تحاول الروائية تقديم صورة عن الفلسطينيين بأنهم ما زالوا صامدين ويقاومون من ذلك يقول داوود: " أسأل نفسي كلما واجهت الحياة في عيونهم هل الموت يكون بانتهاء الأنفاس كافيا؟ لا، ألف لا، الحياة فيهم متدفقة من ضحكة صبي يحسن استخدام " الشعبة" / الخشبية [...] يقذفون في قلوب الجنود المتربصين لهم بالأسلحة خوفا، أجساد لا تخاف الموت، وقلوب كبيرة، وأيد على الهدف الواحد مصوبة " (30).

تحاول الروائية أن تشرك عدة شخصيات في هذه القضية وأن تجعل تعدد وجهات النظر قائمة في النص، من ذلك ما نقله يانثيل عن الحوار الذي بينه وبين هيلبا: " منذ أيام تحدثنا أنا وهيلبا بخصوص تغيب الطويل عن المشفى في لحظات داوود الحرجة، الحوار الذي لم يفلح في تغيير قناعاتها، بل زاد الأمور سوءا بمعرفة داوود حقيقة المتبرع، هو لم يكن متبرعا وإنما أخذ قلب هذا الشاب في لحظات حياته الأخيرة، وهذا الأمر ليس سيئا، لأنه في النهاية إن لم يفارق الحياة فإنه سيمضي سنوات حياته في السجن لمحاولته قتل إسرائيلي. وكان الأجدر له والأفضل أن يموت " (31).

يعكس النص وجهة نظر مغايرة عما يراها داوود الذي يرى سلب الآخر ظلما في حين يرى والده عكس ذلك ، فيراه من حقه ذلك ، وإن الآخر هو المعتد عليه .

في رواية جنة لم تسقط تفاحتها تجاوزت الروائية آليات استلاب الجسد التي تمارسها السلطة سواء أ كان ثقافيا عن طريق فرض شكل ثقافي معين في اللبس أو المأكّل وما إلى ذلك أو في فرض معتقد ما إلى تطبيق آلية إخضاع الجسد ولكن فرضت الروائية مقاومة لهذه الآلية في متنها .

فالجسد كان له الدور المركزي في النص ولم يكون حضوره هامشيا ، بل كان عاملا مهما في بناء النص فهو المتحكم في سير النص ودلالته .

فجسد الفلسطيني الذي سلب منه قلبه وزرع في ضده وهو الإسرائيلي كان هذا العضو وهو جزء من جسد يمثل قضية الآخر ويمثل حضوره في ضده في مقاومته لاحتلال أرضه وثقافته وجسده فإن سلب الجسد هو أشد حالات الانتهاك ، والأدهى من ذلك هو توظيفه في خدمة الإسرائيلي .

الجسد في رواية (جنة لم تسقط تفاحتها) يتصارع مع المستعمر المستوطن في أرضه وبحضور المهمش في جسد المستعمر ، الذي هو محاولة للرد بالكتابة بوساطة الرواية لحمل قضية المقاومة الفلسطينية بصورة مغايرة عما سائد في الروايات التي تناولت القضية الفلسطينية التي تبين طرائق مقاومة أخرى من الوقوف ضد المستعمر وجها لوجه بالحراك الثوري .

أما رواية (وطأة اليقين شهوة الخيال ومحنة السؤال) فإن قضية الجسد في هذه الرواية مركبة ، فيتعلق الجسد بقضية (الثورة السورية كما يقدمها الراوي في الرواية ضد بشار الأسد) وتعامله مع السجناء ، وبقضية الاتجار بالأعضاء البشرية .

يستلب جسد السجين السوري (حيدر لقمان السنجاري) من قبل اتباع بشار من الضباط ويكون تحت وطأة التعذيب فتستلب حياته ويتاجر بأعضائه البشرية وهذا ما يوضحه النص: " وجّهت له لكمة قوية أوقعته أرضا ، فارتطم رأسه بالجدار ، وتدفّق

الدم من أنفه وفمه وأذنيه ، على الفور ، طالبت بنقله إلى قسم استئصال الأعضاء البشرية . استأصلنا القلب ، الكبد ، الكليتين ، البنكرياس ، المعدة ، [...] وكل ما يمكن استئصاله منه وبيعه في سوق الأعضاء " (32).

فالجسد هو علامة لحضور الإنسان في عالمه ومحيطه وفي هذا النص أصبحت السلطة تتحكم بالجسد ، فتستهلكه وتوظفه لغايات محددة وتسعى محو كل من يخالفها فالسلطة قامة لكل من يخالفها ولا تقتصر على ذلك بل تستغله لمصلحتها فالجسد الحي الذي يخالف السلطة تسعى لإبادته .

وفي نص آخر يقول الضابط " ذو الفقار " في حوار مع جورجينيو " نحن نعتبر من نأخذ منهم الأعضاء ، أسرى حرب .

- أي حرب ؟!

- هؤلاء الخونة الذين يخرجون في المظاهرات ويريدون إسقاط نظام الحكم في سورية . هؤلاء إذا استلموا الحكم في البلد ، فسوف يبيدوننا عن بكرة أبينا . -- من أنتم ؟! - العلويون . نحن أقلية دينية هذه التفاصيل لا تهكم كثيرا عموما ، نحن لسنا مثلكم . ونكتفي باستئصال عضو أو أكثر من الشخص ، ونسلم جثته لأهله . ولم ننصب مثلكم الأفران والمحارق للناس " (33).

تحاول السلطة تعليل سبب مجابقتها للثوار عبر ممارساتها وكل من ينتمي لها يؤدج بمجموعة من القيم ، فصنعت هذه الشخصية ، التي تنتمي للسلطة ضمن حقل من القيم ، وكل من ينتمي لهذه القيم يصبح من دائرتها ومن يخالفها تتقاطع معه وتبيده .

وكان جسد هذا السوري المخالف للسلطة أن يكون مشروعا لتجارة الأعضاء فهو مشروع للسلطة تسعى لاستغلاله لحد الموت .

فالجسد المعذب والجسد المستغل يمثل صورة من صور الألم والعنف اللامحدود ويمثل ما يعانيه السجناء السياسيون .

فالنص يوضح أن السلطة ذات طابع تعنيفي لا مجال للتداول والسلمية، فلا تمتلك هذه السلطة قيم الحوار والتسامح؛ لذلك فخطابها وخطاب أعضائها مطبوع بالعنف وقسوة لا متناهية في التعامل مع المخالفين، وروح انتقامية بشعة فيوضح النص: "العلاقة الملتبسة بين الجلال والضحية بين النظام السياسي الذي يفرخ الاضطهاد والتعذيب، والضحايا الذين يقاومون التشويه والموت" (34).

ويقدم الراوي صورة يرسمها عن النظام وعن أعضائه فيقول: "كان ذوالفقار على وشك أن يصبح نائبا في البرلمان اللبناني سنة 2009 إلا أنه فشل بأمر من بشار الأسد واستدعائه له بشكل مفاجئ إلى دمشق، وتكليفه بمهام سرية لم يعرف عنها شيء في حينه والآن يدير ذوالفقار شبكة لتهريب الأعضاء البشرية التي يتم استئصالها من المعتقلين، بهدف تمويل النظام. ومع ذلك بقي الجنرال ذوالفقار العلي، خارج لائحة العقوبات الأمريكية والأوروبية الصادرة بحق رجال نظام الأسد على اعتباره مواطنا لبنانيا يعمل في الخفاء" (35).

يرسم الراوي الذي "يتكلف بتمثيل الواقع من منظوره الخاص طبعاً لكن هذا المنظور حتى وإن كان ذاتياً، فإنه يظل يحمل جوانب متميزة تتصل بالموضوع الممثل" (36) صورة عن السلطة المتمثلة بنظام بشار الأسد، فيبين فساد هذا النظام كما يراه الراوي، فيعطي أدلة عن بنية تكوين هذا النظام الذي يمول عن طريق التجارة غير الشرعية وهي الإتجار بالأعضاء البشرية من المعتقلين السجناء.

فشخصية ذوالفقار الذي يمثل اتباع النظام ويظهر بصورة مستبدة وانحرافاً في تطبيق القوانين واستغلاله للسياسة، ولكن هذا التكوين لا يأتي من طرف واحد لأن "الانحراف في السياسة لا يعود فقط إلى رغبة شخصية أو نزعة شريرة لدى البعض، بل هو نتيجة تفاعل عناصر شتى تتقاسمها المؤسسات وأجهزة الدولة ووعي الفرد المواطن" (37).

فالجسد للسجين السوري يحمل قضية ستعيش من خلال أجساد آخرين يتم الحصول على أعضائه عن طريق زرع الأعضاء من ذلك "بات يفكر في السبب الذي يجعل مجموعة من الأوروبيين المرتاحين في بلدانهم، يتضامنون مع مهاجرين

ولاجئين أجنب ، في هذا الزمن الاستهلاكي الذي جعل سكان البلدان الأوروبية تتجاهل قضايا بلدانها ، ناهيك عن الاهتمام بقضايا الشعوب الأخرى غير الأوروبية؟! ولكن في الوقت عينه سأل رولان نفسه : " لماذا أنا أيضا شعرت بصوت داخلي يناديني من الأعماق يدفعني للتضامن مع هؤلاء البشر ؟ يبدو أن العدوى وصلتني أيضا ! من هم السوريون ؟! وما هي سورية ؟! " (38).

نجد في هذا النص تحولا في الشخصية فأخذت تميل إلى القضية السورية ونجد حضور أعضاء الجسد المسلوب ليبرز حضوره عن طريق الآخر الذي يعبر عنه ويؤثر فيه .

هذا التحول نلتمسه عند هذه الشخصية وشخصيات أخرى خضعت لزراعة الأعضاء " دخل جورجينيو على خط الحديث والنقاش الدائر وأشار إلى أن حالته لا تختلف عن حالتي رولان وكارا . شعر بتحول في شخصيته بعد إجراء عملية زرع الشبكية . صارت نظرتة إلى العالم والحياة والأشياء مختلفة بعينه اليمنى قياسا بالعين اليسرى [...]بالإضافة إلى ذلك نفس الشعور الذي ينتاب رولان بخصوص الرغبة في البقاء مع هؤلاء الاصدقاء ، ومتابعة أخبار الثورة السورية ينتابه أيضا أوضح بيير أن كلارا أيضا تعاني من بعض ما يعانيه ولات ورولان " (39).

يوظف الروائي آلية مقاومة الاستلاب عن طريق الجسد بواسطة الأعضاء المزروعة في جنسيات أوروبية مختلفة ليحول أنظار العالم لقضية سورية وما تعانيه من ويلات ، فأصبحت الأعضاء عناصر فاعلة في النص ، فأنتجت موقفا موحدا تجاه القضية ، فتشكّل خطابا مغايرا لما سبق بعد زراعة الأعضاء .

وتبيّن لنا من النصوص المذكورة آنفا أن غياب القضية السورية عند الأوروبيين وقد حضرت عن طريق هذا التفاعل بين الأعضاء والأجساد الجديدة .

ساعدت هذه الآلية على إيقاظ ما هو مغيب فعن طريق ذلك تمت الغلبة على السلطة ولو ضمينا وتفكيكها ، فهذا تأكيد لعجز السلطة على تكميم الأفواه .

أنتج هذا التوظيف للأجساد وعيا فتح آفاقا جديدة في تناول هذه القضية فإحضار الذات المغيبة عن طريق الآخر المتمركز في الحضور ما هو إلا عكس للأدوار إذ يصعد الهامش باستيلائه على المركز ليستحوذ على النص وينقل قضيته ويؤكد ذلك قول إحدى شخصيات الرواية: " يبدو أن السؤال الذي طرحته في البداية ، وأن التغييرات النفسية والمعرفية التي طرأت على شخصياتنا بالفعل ، مصدرها الأعضاء التي زرعت في أجسادنا . هذه الأعضاء الحية فينا هي التي وزعت روح صاحبها علينا يعني نحن الثلاثة مسكونون بجزء من روح شخص لا نعرف من هو وهذه الروح هي التي خلقت الألفة بيننا " (40).

وتتميز هذه الأجساد التي زرعت الأعضاء فيها في كل المقاطع السردية في الرواية بكونها أجسادا قد حملت قضية المهمش تحاول أن تجد أجوبة لتساؤلاتها ، و ارتبط ذلك بإحياء السجين المقتول من جديد ، فتحول من ميت إلى حي وهو ما حاول الروائي تحقيقه من خلال نصه الروائي .

الخاتمة :

نتوصل من ذلك أن بنية الجسد بنية معقدة في الروايتين (جنة لم تسقط تفاحتها ، وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال) ؛ وذلك بسبب طبيعة العلاقة التي ربطت الشخصيات ، وما تمثله من موقع يتنوع من موقع سياسي يمثل السلطة وموقع اجتماعي وثقافي وما يربط الجسد بالفكر.

وقد جاء الجسد دالا ؛ لينتج دلالة تعبر عن المقاومة وعن إثبات الوجود وعن إدانة الآخر المعتدي والمغتصب فعبرت الروائية ثورة حوامدة عن جنة فلسطين ، التي لم يطرد أهلها مع فعل الاستلاب الكلي من قبل الصهيوني إلا أنها جعل الجسد حاضرا عن طريق القلب والحركات والإيماءات التي صدرت من الشخصية التي أدانت نفسها بنفسها ، فجعلت للمعتدي صوتا يفصح عنه في الرواية ؛ ليبين اضطهاده وظلمه للفلسطيني .

حمل الجسد دلالات منها: الإدانة للمعتدي، وإثبات وجود للفلسطيني وهي طريقة مغايرة في تناول القضية الفلسطينية .

أما رواية (وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال) عبّرت عن الاستبداد للأنظمة العربية وخصت بالذكر القضية السورية، وجعلت المهمل له حضور فاعل عبر جعل أجزاء جسده الموزعة على الآخر الأوربي ليحمله يلتفت إلى القضية السورية .

فالجسد كان خانعاً وخاضعاً فيما سبق في الرواية العربية، وكان معرضاً للاستلاب أما في الروايتين فقد وظّف بطريقة مغايرة وأصبح الجسد يدل على المقاومة وإثبات الوجود .

الهوامش :

¹ () لسان العرب ، ابن منظور ، دار الحديث، القاهرة ، 2013 : مجلد 77/2.

² () اللغة في الأدب الحديث الحداثة والتجريب ، جاكوب كورك ، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانوئيل ، دار المأمون للترجمة والنشر ، بغداد ، 1989 : 45-46.

³ () الفن الروائي ، ديفيد لودج ، ترجمة : ماهر البطوطي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002 : 122.

⁴ () الرواية والواقع ، ناتالي ساروت ، آلان روب غرييه ، لوسيان غولدمان ، جينيفاف مويو ، ترجمة : رشيد بنحدو ، وزارة الثقافة والرياضة ، قطر ، 2018 : 23.

⁵ () الرواية العربية ورهان التجديد، د. محمد برادة ، دار الصدى للنشر والتوزيع ، ط1، 2011 : 48.

⁶ () لذة التجريب الروائي ، د. صلاح فضل ، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ، القاهرة ، ط1 : 3.

⁷ () المرجع نفسه : 5.

⁸ () ينظر : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بركراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط3، 2012 : 195-192.

⁹ () ينظر : الجسد بين الحداثة وما بعد الحداثة ، د. سامية قدرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1، 2016 : 98.

¹⁰ () الجسد بين المتخيل السردى والنسق الثقافى ، د. أحمد علوانى ، دار النابغة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2019 : 333.

¹¹ () ينظر : الرواية العربية مابعد الحداثيّة تقويض المركز - الجسد - تحطيم السرديات الكبرى ، د. ماجدة هاتو هاشم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1، 2013 : 304.

- (12) الرواية الجديدة قراءة في المشهد العربي المعاصر، د. محمود الضبع ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2010، د.ط : 125
- (13) موقع الهوية السلطة ،الجسد ،المكان ،العنف، سعد محمد رحيم، دار ميزوبوتاميا للنشر والتوزيع ، بغداد ، ط1، 2018 : 103.
- (14) ينظر : مافوق البنيوية فلسفة البنيوية وما بعدها ، ريتشارد هارلند ، ترجمة : لحسن أحمامة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط2، 2009: 225.
- (15) الرواية العربية الحديثة المرجع والدلالة بحث في انثروبولوجيا الجسد ، د. جمال بو طيب ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1، 2013: 106.
- (16) الرد بالجسد وخطابات أخرى دراماتيك الاستشراق - الخطاب النقيض - الغيرية - الإرهاب الفكري ، محمد كريم الساعدي ، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ، سوريا ، ط1، 2018 : 25.
- (17) ينظر : الرواية العربية ما بعد الحداثية : 315.
- (18) ما بعد الحداثة في الرواية العربية ، د. إحسان محمد التميمي ، دار قناديل للنشر والتوزيع ، بغداد ، ط1، 2018: 189.
- (19) قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود : 173.
- (20) اتجاهات الرواية العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين ، د. منصور قيسومة ، الدار التونسية للكتاب ، د.م ، د.ط ، 2013: 96.
- (21) ينظر : الرواية بين الإيديولوجيا والفن الرواية الأردنية أنموذجاً ، د.حنين إبراهيم معالي ، الآن ناشرون وموزعون ، الأردن ، ط1 ، 2020 : 143-146.
- (22) جنة لم تسقط تفاحتها ، ثورة حوامدة ، دار الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1، 2017: 75.
- (23) المصدر نفسه: 78.
- (24) المصدر نفسه: 78-79.
- (25) المصدر نفسه: 90-91.
- (26) المصدر نفسه: 110.
- (27) المصدر نفسه: 95.
- (28) موقع الهوية السلطة ، الجسد ، المكان ، العنف : 130.
- (29) جنة لم تسقط تفاحتها : 114.
- (30) () المصدر نفسه: 206-207.
- (31) المصدر نفسه: 85.
- (32) وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال ، هوشنك أوسي ، دار سؤال للنشر ، بيروت ، ط1، 2016 : 388.
- (33) المصدر نفسه : 334-335.
- (34) تخييل الذات والتاريخ والمجتمع قراءة في روايات عربية ، محمد برادة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط1، 2017: 296.
- (35) وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال : 329-330.
- (36) قضايا الرواية العربية الوجود والحدود ، سعيد يقطين ، دار الأمان الرباط ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ط1 ، 2012 : 171 .
- (37) تخييل الذات والتاريخ والمجتمع قراءة في روايات عربية : 243.
- (38) وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال : 329-330.
- (39) المصدر نفسه: 246-247.
- (40) المصدر نفسه : 269.

المصادر والمراجع:

- ❖ اتجاهات الرواية العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين ، د. منصور قيسومة ، الدار التونسية للكتاب ، د.م ، د.ط ، 2013.
- ❖ تخييل الذات والتاريخ والمجتمع قراءة في روايات عربية ، محمد برادة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط1 ، 2017 .
- ❖ الجسد بين الحداثة وما بعد الحداثة ، د. سامية قدرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 2016.
- ❖ الجسد بين المتخيل السردي والنسق الثقافي ، د. أحمد علواني ، دار النابغة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2019 .
- ❖ جنة لم تسقط تفاحتها ، ثورة حوامة ، دار الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2017.
- ❖ الرد بالجسد وخطابات أخرى دراماتيكية الاستشراق - الخطاب النقيض - الغيرية - الإرهاب الفكري ، محمد كريم الساعدي ، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ، سوريا ، ط1 ، 2018 .
- ❖ الرواية الجديدة قراءة في المشهد العربي المعاصر، د. محمود الضبع ، المجلس الأعلى للثقافة ، د.ط، 2010.
- ❖ الرواية العربية الحديثة المرجع والدلالة بحث في انثروبولوجيا الجسد ، د. جمال بو طيب ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2013.
- ❖ الرواية العربية مابعد الحداثيّة تقويض المركز - الجسد - تحطيم السرديات الكبرى ، د. ماجدة هاتو هاشم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 2013.
- ❖ الرواية بين الإيديولوجيا والفن الرواية الأردنية أنموذجاً ، د.حنين إبراهيم معالي ، الآن ناشرون وموزعون ، الأردن ، ط1 ، 2020 .
- ❖ الرواية العربية ورهان التجديد، د. محمد برادة ، دار الصدى للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2011 .
- ❖ الرواية والواقع ، ناتالي ساروت ، آلان روب غرييه ، لوسيان غولدمان ، جينيفاف مويلو ، ترجمة : رشيد بنحدو ، وزارة الثقافة والرياضة ، قطر ، 2018 .
- ❖ السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية ، ط3 ، 2012 .

- ❖ الفن الروائي ، ديفيد لودج ، ترجمة : ماهر البطوطي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002.
- ❖ قضايا الرواية العربية الوجود والحدود ، سعيد يقطين ، دار الأمان الرباط ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ط1 ، 2012 .
- ❖ لذة التجريب الروائي ، د. صلاح فضل ، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ، القاهرة ، ط1 .
- ❖ لسان العرب ، ابن منظور ، دار الحديث، القاهرة ، مجلد 2 ، د.ط ، 2013.
- ❖ اللغة في الأدب الحديث الحداثة والتجريب ، جاكوب كورك ، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانوئيل ، دار المأمون للترجمة والنشر ، العراق ، د.ط، د.ت.
- ❖ ما بعد الحداثة في الرواية العربية ، د. إحسان محمد التميمي ، دار قناديل للنشر والتوزيع ، بغداد ، ط1، 2018.
- ❖ مافوق البنيوية فلسفة البنيوية وما بعدها ، ريتشارد هارلند ، ترجمة : لحسن أحمامة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط2 ، 2009.
- ❖ موقع الهوية السلطة ، الجسد ، المكان ، العنف ، سعد محمد رحيم ، دار ميزوبوتاميا للنشر والتوزيع ، بغداد ، ط1 ، 2018 .
- ❖ وطأة اليقين محنة السؤال وشهوة الخيال ، هوشنك أوسي ، دار سؤال للنشر للنشر ، بيروت ، ط1 ، 2016 .